Syria in The Byzantine Age between the 4th century and the 7th century AD. (The development of Byzantine studies historical and archaeological).

Dr. Souleyman Samir Ghanem *

(Received 28 / 10 / 2019. Accepted 6 / 1 / 2020)

□ ABSTRACT □

The Byzantine Empire was the legitimate heir of the Roman Empire in the West, especially after the fall of Rome in the 5th century AD by the Barbarians. Byzantine history continued for nearly a thousand years, in which Greek traditions and Christianity lived side by side. Byzantium was the imperial capital and the provinces, especially the eastern provinces such as Syria, belonged to it. This province played a major role in the Byzantine event and on many levels. The study includes the study of the stages of the development of Byzantine history academically through ancient Byzantine historical sources and studies and research carried out by universities in Europe as a framework for Byzantine studies as well as archaeological excavations that took place in the last century throughout the empire.

The research will also shed light on the historical and archaeological information contained in sources and references about Syria as the most important eastern states in the empire. It reviews the most important centers of Byzantine historical and archaeological heritage in Syria between the fourth century and the seventh century. The research attempts to help Arab specialists and researchers in Byzantine history to gain knowledge of the historical and archaeological structure of historical sources and references of Byzantine studies.

Keywords: Syria. Byzantium. Empire. The Christianity. Historical studies. Archaeological studies.

* **Assistant Professor - College of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria**

سوريا في العصر البيزنطي بين القرن الرابع الميلادي والقرن السابع الميلادي (تطور الدراسات البيزنطية تاريخياً وأثرياً)

د. سليمان سمير غانم*

(تاريخ الإيداع 28 / 10 / 2019. قبل للنشر في 6 / 1 / 2020)

□ ملخّص □

كانت الإمبراطورية البيزنطية الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية في الغرب، وخصوصاً بعد سقوط العاصمة روما في القرن الخامس الميلادي بيد البرابرة. استمر التاريخ البيزنطي فيما بعد قُرابة الألف عام، عاشت فيها التقاليد اليونانية والديانة المسيحية جنباً إلى جنب. كانت بيزنطة العاصمة الإمبراطورية وكانت الولايات وخصوصاً الولايات الشرقية كسوريا تتبع لها. لعبت ولاية سوريا دوراً كبيراً في الحدث البيزنطي وعلى مستويات عديدة. يتضمن البحث دراسة مراحل تطور التاريخ البيزنطي أكاديمياً من خلال المصادر التاريخية البيزنطية القديمة والدراسات والأبحاث الحديثة نسبياً التي قامت بها الجامعات في أوروبا كإطار جامع للدراسات البيزنطية متضمنةً التنقيبات الأثرية التي جرت في القرن الماضي في أنحاء الإمبراطورية.

سيُلقي المقال أيضاً الضوء على نوعية المعلومات التاريخية والأثرية الواردة في المصادر والمراجع عن سوريا كونها أهم الولايات الشرقية في الإمبراطورية. ويستعرض محطات من أهم مراكز الإرث التاريخي والأثري البيزنطي في سوريا بين القرن الرابع الميلادي والقرن السابع الميلادي. يُحاول البحث مُساعدة المختصين والباحثين العرب في التاريخ البيزنطي للإلمام بالهيكل العلمي التاريخي والأثري للمصادر والمراجع التاريخية للدراسات البيزنطية.

الكلمات المفتاحية: سوريا. بيزنطة. الإمبراطورية. المسيحية. دراسات تاريخية. دراسات أثرية.

* **مدرس– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية**

مقدمة:

العصور الكلاسيكية في سوريا: هي العصور التي عاشت فيها سوريا الثقافة اليونانية والرومانية في اللغة، السياسة، الأدب والاقتصاد. تبدأ العصور الكلاسيكية في منطقة المشرق العربي بدخول جيش الإسكندر المقدوني إلى سوريا في القرن الرابع قبل الميلاد بعد انتصاره على الفرس في معركة إيسوس شمال غرب سوريا قرب مدينة الاسكندرون، وتنتهي العصور الكلاسيكية مع الدخول الإسلامي إلى سوريا في بداية القرن السابع الميلادي بعد الحدث التاريخي المفصلي في معركة اليرموك. استمرت هذه العصور في سوريا قرابة الألف عام[1]. يُعرف العصران الأولان منها؛ أي اليوناني والروماني بالعصر الكلاسيكي: الذي يمتد من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي، ليبدأ بعدها في سوريا العصر البيزنطي الذي يُعرف تاريخياً بالعصر ما بعد الكلاسيكي. سوريا لم ترزح تحت السيطرة البيزنطية إلا ثلاثة قرون: أي من منتصف القرن الرابع الميلادي إلى بداية القرن السابع الميلادي، حيثُ انتهت الحقبة البيزنطية مع دخول العرب المسلمين إلى سوريا بعد انتصار الجيش الإسلامي على البيزنطيين في جنوب سوريا[2].

لعبت ولاية سوريا في العصر البيزنطي دورمن أهم الأدوار التي لعبتها الولايات البيزنطية في الشرق، سواء في السياسة والأهمية الاستراتيجية عبر صراع بيزنطة مع الفرس، أو في الدور الثقافي الديني كمهد لتقاليد مسيحية راسخة بالنسبة لأباطرة بيزنطة على اعتبار أن سوريا هي الأرض المقدسة التي تمتد من مدينة القدس وحتى العاصمة أنطاكيا. يُصنف العصر البيزنطي أكاديمياً ضمن قائمة ما يُعرف بالعصر ما بعد الكلاسيكي؛ أي ما بعد الإغريقي الروماني الوثني، حيثُ تمايزت بيزنطة كغيرها من ممالك العصور الوسطى ذات الصبغة الدينية الواحدة التي نشأت عن تفتت الأراضي التي كانت تُشكل قبلاً جسم الإمبراطورية الرومانية الموحد. تطور تاريخ بيزنطة باتجاه أدبيات العصور الوسطى بعيداً عن الأدبيات التقليدية الكلاسيكية الوثنية في أثينا وروما، كانت الإمبراطورية الشرقية متأثرة بالتقاليد اليونانية والرومانية إلى حد كبير، عبر اللغة اليونانية والإرث التاريخي والهيكل الإداري الروماني، لكنها كانت مختلفة ثقافياً عن الإمبراطوريات الكلاسيكية للعالم القديم؛ سواءُ في نظم الحكم أو في الصيغة الدينية المسيحية، لذلك يُطلق عليها أو تصنف ضمن العصر ما بعد كلاسيكي Postclassical-Era-[3].

---

[1] سارتر، موريس، *سوريا في العصور الكلاسيكية (الهلنستية والرومانية)*، ترجمة محمد دنيا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2005، ص 10.

[2] فرح، نعيم، *تاريخ بيزنطة السياسي*، الطبعة الثانية، منشورات جامعة دمشق 1999، ص 118.

[3] Zanini, E., *Introduzione All' Archeologia Bizantina*, carroci, Roma 2009, p.23.

* تُعرف سوريا في المراجع العربية باسم بلاد الشام ويَرد الاسم نسبة لمدينة دمشق التي سُميت المنطقة على اسمها واختلفت الروايات في اللغات المشرقية القديمة. أما صيغة الاسم الحالية سوريا فقد وردت لأول مرة عند الإغريق لوصف الساحل الشرقي للبحر المتوسط. ورد المصطلح لأول مرة عند المؤرخ الإغريقي هيرودوت للدلالة على المنطقة التي تمتد من لواء الاسكندرون شمالاً حتى غزة جنوباً ومن البحر المتوسط شرقاً حتى نهر الفرات غرباً (تاريخ هيرودوت: الكتاب 3 الفقرة 91). والنص كُتِب في القرن الخامس قبل الميلاد خلال الحكم الفارسي للمنطقة والذي كان يُسمي سوريا (ساترابية عبر النهر).

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

تُسمى سوريا الجغرافية في اللغة العربية (بلاد الشام)* تستحضرُ منذ القرن الرابع قبل الميلاد ميداناً للتواصل واللقاء بين الثقافة الإغريقية الرومانية والثقافة السورية المحلية. نُلاحظ في العصور المتقدمة من الدخول الإغريقي والروماني إلى سوريا دوراً منسجماً للسكان في سوريا مع الثقافة الجديدة الوافدة المتمثلة في الحضارة الإغريقية الرومانية، خصوصاً خلال القرون الأربعة الأولى، لكنهُ دور مُنسجم مع الثقافة اليونانية الرومانية الوافدة ثقافياً من دون المشاركة بفعالية في الأحداث السياسية والتاريخية. فيما بعد نُلاحظ انعطافة كبيرة في القرون الميلادية الأربعة الأخيرة وخصوصاً في العصر الروماني المتأخر، أو الذي يُطلق عليهِ العصر البيزنطي المُبكر، حيثُ أصبح سكان سوريا في هذا العصر فاعلين في مجريات الأمور ومشاركين في مجالات عديدة: من التأثيرات السياسية إلى الثقافة الدينية السائدة في الإمبراطورية ومن هنا ينطلق البحث في إبراز هذا الدور لسوريا.

يُبرز البحث أهمية الدور الحضاري المحلي الذي لعبهُ السوريون في نهاية العصور الكلاسيكية وخاصة في العصر البيزنطي عبر إظهار السمات الهامة للحياة السياسية، الاجتماعية والاقتصادية، ليس فقط في مراكز المدن، بل عبر تسليط الضوء على الحياة الاقتصادية للسوريين في الأرياف في العصر البيزنطي وأيضاً الدور الاجتماعي الديني اللافت لسوريا في هذا العصر المبكر من تاريخ الامبراطورية والذي يمتد من عام 323 ميلادية إلى 610 ميلادية؛ أي من عصر الإمبراطور قسطنطين إلى عصر الامبراطور هرقل، حيثُ شارك السوريون في تشكيل التاريخ الروماني المتأخر بكل جوانبه وفي مناحي عديدة، فقد أنتجت سوريا في العصر الروماني المتأخر (البيزنطي) ثقافة محلية مختلطة بالثقافة الكلاسيكية أعطت للمنطقة أهمية كبيرة على الصعيد العالمي، عبر التقاليد التي أنجبتها. تجلت مشاركتها في الجانب السياسي عبر الدور الذي لعبهُ العرب الغساسنة المتحالفين مع بيزنطة في سوريا في الصراع مع الإمبراطورية الفارسية من القرن الخامس الميلادي وحتى بدايات القرن السابع[4]. في الناحية الثقافية الدينية تجلت مساهماتها عبر تصديرها للديانة المسيحية للعالم المتحضر، حيثُ كانت سوريا مهداً للديانة المسيحية في بداية العصر الروماني وناشراً لها وللأدبيات المسيحية الجديدة عبر إشعاع الكثير من مدنها ولا سيما أنطاكيا والرها، بالإضافة إلى نواحي أخرى تتجلى في وصول عدد من الشخصيات الدينية السورية إلى الكراسي الرسولية الرئيسية في المدن أو حتى الكرسي الرسولي في العاصمة بيزنطة نفسها كنسطور و يوحنا فم الذهب، يُضاف إليه حركة الرهبنة اللافتة وشُهرة العديد من الشخصيات السورية المتنسكة في العصر الروماني المتأخر (البيزنطي). سياسياً نُلاحظ في هذا العصر أيضاً محاولات العرب الغساسنة للاستقلال عن الإمبراطورية البيزنطية وتشكيل حُكم محلي يلاحظ بشكلٍ واضح في محاولات تشكيل كنيسة وطنية مسيحية مستقلة لأصحاب الطبيعة الواحدة* متمايزة عن بيزنطة[5].

---

[4] **Tchalenko, G., *Villages antiques de la Syrie du Nord*, Paris 1953-1958, pp.2-5.**

*** أصحاب الطبيعة الواحدة في سوريا هم: المسيحيون الذين اتبعوا قرارات مجمع أفسس الكنسي الثاني في الإمبراطورية واحتفظوا بإيمانهم الأرثوذكسي الذي يقول إن طبيعة السيد المسيح هي طبيعة إلهية حيثُ سُمي هؤلاء باسم المونوفيسيين لأنهم يؤمنون في المسيح بطبيعة إلهية غير مختلطة بالطبيعة الإنسانية.**

[5] **خلف، تيسير، كنيسة العرب المنسية، أديرة الغساسنة في دمشق والجولان وحوران ولبنان، دار التكوين، دمشق 2008، ص 9.**

منهجية البحث:

يُتابع البحث سَير تطورِ الدراسات التاريخية والأثرية للإمبراطورية البيزنطية ومن ضمنها المعلومات التي تُقدمها عن ولاية سوريا البيزنطية. استمر تطور الدراسات البيزنطية لفتراتٍ طويلة من الزمن في الغرب الأوروبي، نَضجتْ في نهاية المطاف لتُعطي هيكلاً علمياً واضحاً وموثقاً للمعلومات الواردة عن التاريخ البيزنطي، ولكون سوريا كانت جزءاً من الامبراطورية فإن البحث ينتهج تحليل وتوثيق مراحل تطور المعلومات الواردة عن سوريا سواء عبر الدراسة في المصادر والمراجع التاريخية أو عبر الأبحاث الأثرية التي جرت في سوريا مطلع القرن الماضي وأواسطه.

أولاً: سوريا والتحولات التاريخية في بنية الإمبراطورية الرومانية.

يعودُ التحول في أوضاع الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي إلى أسباب بنيوية عديدة؛ سياسية، اقتصادية واجتماعية، حصلت داخل طبيعة الحكم الروماني وخصوصاً شكل هيئة الحكم الإمبراطورية في القرن الثالث الميلادي، والتغييرات التي طرأت عليها، من استخدام النظام الرباعي للحكم في عهد الإمبراطور ديوكليسيانوس (284–305.م) عبر تقاسم أراضي الإمبراطورية الشرقية والغربية بين القياصرة والأباطرة. وعوامل أخرى ثقافية دينية؛ كان من أهمها توجه الإمبراطورية نحو المسيحية في القرن الرابع الميلادي. ومن ثم عامل آخر لعب دوراً كبيراً في هذا التحول؛ ألا وهو نقل مركز الإمبراطورية نحو الشرق في عهد الإمبراطور قسطنطين. بعدها نتابع عاملاً آخر ساعد في وضوح مفهوم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة)؛ هو تقسيم الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير للإمبراطورية بين قسمين شرقي وغربي بين أولاده أركاديوس وأنوريوس، حيثُ حكم أركاديوس القسم الشرقي وأونوريوس القسم الغربي[6].

من ثُم نرى الحدث التاريخي الأخير والأكثر بروزاً في انفصال بيزنطية واستقلاليتها عن مفهوم الإمبراطورية الرومانية الموحدة بصيغتها القديمة التي نعرفها ألا وهو سقوط النصف الغربي من الإمبراطورية بيد البرابرة الجرمان في القرن الخامس الميلادي بعد أن استطاع آدواكر زعيم الجرمانيين دخول روما واحتلالها عام 476 ميلادي وهو الحدث المفصلي في التاريخ الكلاسيكي القديم والذي يُعرف من قِبل الباحثين بسقوط روما[7].

سوريا في العصر الهلنستي–الروماني: أصبحت سوريا في القرن الرابع ق.م مهد المملكة السلوقية، فبعد وفاة الاسكندر المقدوني وتفتت دولته، استقل أحد قادته المعروف بسلوقس نيكاتور بحكم شرق المتوسط من سوريا حتى فارس، حيثُ استطاع تأسيس سلالة ملكية حكمت المملكة من العاصمة أنطاكيا لقرون عديدة. في عام 65 ق.م أصبحت سوريا ولاية رومانية تتبع العاصمة روما بعد دخول القنصل الروماني بومبيوس إليها والقضاء على السلوقيين وبقيت عاصمتها مدينة أنطاكيا. في القرن الرابع الميلادي وبالتحديد في عصر الامبراطور قسطنطين الكبير أصبحت سوريا ولاية بيزنطية تتبع العاصمة القسطنطينية وبقيت عاصمة الولاية أنطاكيا أيضاً. يتم غالباً إلحاق العصر البيزنطي في سوريا بالعصور الكلاسيكية، و يتم التعامل مع جو ثقافي واحد يمتد من دخول الاسكندر الأكبر إلى سوريا و حتى الدخول الإسلامي في القرن السابع الميلادي، لأن سوريا كانت قد عاشت الحقبة البيزنطية الأولى فقط من حياة الإمبراطورية البيزنطية، التي تُعرف بالعصر الروماني المتأخر أو العصر البيزنطي المتقدم، لأن الفوارق لم تكن قد ترسخت بعد بين تقاليد الإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية وتقاليد الإمبراطورية البيزنطية المسيحية، حيثُ أُعيدت صياغة التقاليد الكلاسيكية في سوريا في هذا العصر وفي كافة نواحي الحياة السياسية و الثقافية طيلة القرون الثلاثة الأولى من

[6] **فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، ص 60.**

[7] **فرح، *تاريخ بيزنطة السياسي*، ص 80.**

عمر الإمبراطورية البيزنطية، تحديداً بين القرن الرابع و القرن السابع الميلادي، لتُنتج بعدها ثقافة بيزنطية جديدة متمايزة عن التقاليد الرومانية، اختلطت فيها التقاليد الثقافية اليونانية مع التقاليد المسيحية و الفنون الشرقية، هذه الثقافة البيزنطية الجديدة نراها مترسخة باستقلالية في وقت لاحق في العصور الوسطى، بشكل أوضح بعد القرن الثامن الميلادي[8].

ثانياً: تطور الدراسات البيزنطية تاريخياً.

يُقسم التاريخ البيزنطي أكاديمياً إلى ثلاثة حقب؛ **الحقبة البيزنطية المبكرة:** التي تمتد من القرن الرابع الميلادي حتى بداية القرن السابع الميلادي؛ أي من عهد الإمبراطور قسطنطين حتى عهد الإمبراطور هرقل. **الحقبة الثانية المتوسطة:** تمتد من القرن السابع الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي بعد احتلال الصليبيين في الحملة الصليبية الرابعة للعاصمة البيزنطية القسطنطينية. **الحقبة الثالثة المتأخرة:** تمتد من القرن الثالث عشر حتى سقوط الإمبراطورية في يد الأتراك العثمانيين عام 1453.م لتنتهي الإمبراطورية سياسياً من الوجود بسقوط العاصمة القسطنطينية. سوريا عاشت الحقبة البيزنطية الأولى فقط، حيثُ لم تستمر السيطرة البيزنطية في سوريا حتى العصور البيزنطية المتأخرة، على خلاف أماكن أخرى في العالم استمرت فيها سيطرة الإمبراطورية البيزنطية قرابة تسعة قرون أخرى؛ كآسيا الصغرى، شبه جزيرة البلقان وأجزاء من جنوب إيطاليا. **في السياق التاريخي ثلاثة عوامل واضحة صاغت تاريخ بيزنطة هي:** الثقافة الإغريقية، الهيكلية السياسية والإدارية الرومانية، سيادة الديانة المسيحية. هذه العوامل كانت البنية التي تمت فيها صياغة معطيات التاريخ البيزنطي. ومن دون أي عامل من تلك العوامل، لم يكن من الممكن لنا أن نرى الثقافة والحضارة البيزنطية التي نعرفها اليوم قد خرجت بهذا الشكل[9]. في دراسة المراحل التاريخية البيزنطية علينا العودة دوماً للمصادر التاريخية الأصلية التي وثقت للمرحلة المتناولة في البحث، هنا لا بد من الإشارة للمصادر الأساسية للتاريخ البيزنطي القديم، عبر استعراض أسماء المؤرخين البارزين والمصنفين أكاديمياً في التاريخ البيزنطي والذين كتبوا و وثقوا هذه المصادر التي تخُص تاريخ أحداث الإمبراطورية: كزوسيموس Zosimus، يوحنا مالالاس John Malalas، بروكوبيوس القيصري Procopius of Caesarea، أوسابيوس القيصري Eusebius of Caesarea، ثيوفيلكت سيموكاتا Theophylact Simocatta، تيوفانس، يوحنا النيقاوي، المؤرخ سيبيؤس وغيرهم من الأسماء التي وثقت المعلومات التاريخية البيزنطية بمعاصرة الحدث، سواء الديني منه أو المدني. فمثلاً وثق المؤرخ بروكوبيوس القيصري للتاريخ المدني في الامبراطورية سواء عبر كتابه التاريخ السري، الذي يتحدث عن فترة حكم الإمبراطور جوستنيانوس وزوجته تيودورا والقائد بيليزاريوس أو عبر عمله التاريخي العسكري الذي وثق لحروب الإمبراطور جستنيانوس والأحداث السياسية في عهدهِ فجاءت كتابتهُ معاصرة لأهم أباطرة بيزنطة. لدينا أيضاً كتابات الأميرة البيزنطية آنا كومنينوس التي كتبت المصدر التاريخي المهم المعروف باسم الكسيادا والذي وثق لأحداث مهمة تعود لنهاية عهود الامبراطورية. لدينا أيضاً كتاب التاريخ المعروف باسم خرونوغرافيا للمؤرخ تيوفانس، تاريخ يوحنا النيقاوي، تاريخ هرقل للمؤرخ سيبيؤس*[10]. أما فيما يخُص التاريخ الديني؛ فلدينا مثال مهم هو المؤرخ أوسابيوس

---

[8] Ravegnani, G., *Introduzione alla storia bizantina*, Il Mulino, Bologna 2008, p.7.

[9] Ostrogorsky, G., *Storia dell'impero bizantino*, Einaudi,Torino 1993, pp.25-30.

***تم ذكر أغلب مصادر التاريخ البيزنطي مع أسماء أصحابها فقط دون التوسع في الشرح مع وجود مصادر ثانوية أو أقل أهمية و خصوصاً في القرون المتأخرة من التاريخ البيزنطي وخصوصاً بعد فترة حكم الامبراطور جوستنيان للتأكيد على التغيير الذي طرأ في بنية الإمبراطورية الرومانية بعد الفشل في المحافظة على الوحدة الإمبراطورية بعد وفاة الامبراطور جوستنيان ولم يتطرق المقال إلى التفاصيل**

القيصري، الذي كتب كتاب التاريخ الكنسي، الذي يوثق لتاريخ الكنيسة المسيحية وللأحداث الدينية منذ عهد السيد المسيح إلى فترة الامبراطور قسطنطين الكبير. هُنا نلاحظ مجموعة من المصادر الأساسية للتاريخ البيزنطي الديني والدنيوي[11].

بالنسبة للمراجع والدراسات التاريخية البيزنطية المتأخرة، فقد بدأت الدراسات البيزنطية الحديثة في فرنسا في القرن السادس عشر، فبعد سقوط القسطنطينية عاصمة البيزنطيين بيد الأتراك، بدأت اهتمامات الأوربيين بالحدث وبالتاريخ البيزنطي وشهدت تطوراً ودفعاً كبيراً بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين في أوروبا الغربية بالذات. شهدت هذه الدراسات بعدها اهتماماً في دول أخرى من العالم لاسيما الولايات المتحدة الامريكية وكندا. كذلك فإن إعادة دراسة فقه اللغة اللاتينية واليونانية والكلاسيكيات في القرن التاسع عشر في أوروبا كان قد أتاح لظهور الدراسات الحديثة المختصة بمصادر التاريخ البيزنطي وأولها كان العمل الضخم: مجموعة التاريخ البيزنطي المعروفة ب Corpus Scriptorum Historiae Byzantiae، التي ابتدأ العمل بها مع المؤرخ Barthold Georg Niebuhr في عام 1828 ميلادي وانتهى العمل فيها عام 1878 ميلادي ولاتزال مستخدمة من قبل المهتمين بالدراسات البيزنطية حتى اليوم. الاهتمامات الأخرى اللافتة للنظر؛ كانت في النصف الثاني من القرن العشرين، حيثُ ظهرت العديد من الدراسات والمجلات المهتمة بالتاريخ البيزنطي، لتتوج هذه المراحل بتأسيس مراكز الدراسات والأبحاث البيزنطية في أماكن مختلفة من العالم، كان من أولها؛ مركز العاصمة الفرنسية باريس Center de Recherche d' Historia et Civilisation de Byzantce ليليه تأسيس مركز الدراسات البيزنطية الآخر المهم في أواسط القرن الماضي في واشنطن في أمريكا Dumbarton Oaks Center for Byzantine Studies المدعوم من قبل جامعة هارفرد. في إيطاليا ظهر المركز الإيطالي للدراسات البيزنطية والهلينستية المتأخرة في مدينة باليرمو في صقلية تحت اسم Istituto siciliano di Studi bizantini e neoellenici. في إيطاليا أيضاً بين مدينتي بولونيا ورافينا تم تأسيس مركز الدراسات الرافيناوية القديمة والبيزنطية Istituto di Antichità ravennati e bizantini حيثُ كان المركز تحت رعاية جامعة بولونيا الإيطالية. في فينيسيا (البندقية) أيضاً تم تأسيس مركز للدراسات الهلنستية والبيزنطية في عام 1958 الذي كان تمويلهُ من قبل الحكومة اليونانية[12].

في فرنسا أيضاً تأسست الجمعية الدولية للدراسات البيزنطية Association Internationale des Etudes Byzantines حيثُ تكونت وأُديرت من قِبل رؤساء الجمعيات البيزنطية المحلية في الدول المختلفة، ففي إيطاليا كان مركز الجمعية في نابولي الإيطالية، تأسس في عام 1990 ميلادية حيثُ اتخذ كرسيه في جامعة فردريكو الثاني في نابولي تحت اسم Associazione italiana di studi bizantini. هكذا رأينا كيف نشأت الدراسات التاريخية البيزنطية بهيكل علمي وتطورت حتى وصلت إلى علم تأريخي تام له هيكل واضح ومؤسسات منظمة، وصل على يد

المتعلقة بالمؤرخين أو تفاصيل تخص المصادر التي كتبوها لأن هدف المقال جمع تفاصيل تطور الدراسات البيزنطية كمعلومات و جسم عام للدراسات البيزنطية وهذه المصادر بحاجة لمجلدات لذكر المعلومات الواردة فيها عن المؤرخين أو الأحداث التي كتبوها في تواريخهم، و يستطيع أي باحث الحصول من كتب التاريخ البيزنطية عن معلومات وافية للحديث عنهم و لا سيما البارزين منهم؛ كبروكوبيوس القيصري، يوحنا مالالاس، زوسيموس، أوسابيوس القيصري.

[11] Ostrogorsky, G., 1993, pp.23-25.
[12] Ravegnani, G., 2008, p.10.

مؤرخين حديثين إلى قمته كالمؤرخ الروسي اليوغسلافي Georg Ostrogorsky[13]* الذي كتب العمل المهم في التاريخ البيزنطي History of the Byzantine state الذي تُرجم إلى لغات عديدة واعتُبِر من المراجع الكلاسيكية التقليدية للتاريخ البيزنطي، لتستمر بعده محاولات كتابة مقدمات في التاريخ البيزنطي في أغلب دول العالم الغربية والشرقية. مع هذه اللمحة عن الأعمال الجماعية والفردية نلاحظ؛ أن الدراسات التاريخية البيزنطية وصلت إلى التبلور والنضوج بشكل واضح كهيكل توثيقي وكسياق تاريخي واضح مستقل لمرحلة مهمة من علم التأريخ الإنساني عاصرت نهاية العالم القديم وبداية العصور الوسطى ونهايتها[14].

ثالثاً: تطور الدراسات البيزنطية أثرياً.

بالنسبة للدراسات الأثرية البيزنطية، نُلاحظ أنها أخذت منحى تطوري آخر مثير للاهتمام، ففي حين اهتم الأوروبيون الغربيون بدراسة بيزنطة كامتداد لروما وأثينا وكجزء من تاريخهم المدني و الديني، نرى تطور علم الآثار البيزنطية قد بدأ بزخم قوي في أوروبا الشرقية لأسباب مختلفة، ترتبط هذه الأسباب بظهور الوعي القومي للسلاف في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين والبحث عن جذور تاريخهم العائد للعصور الوسطى المبكرة و الذي يتزامن بالظهور مع التاريخ البيزنطي، حيث تأثر و أثر في التاريخ البيزنطي، عبر الجغرافيا و عبر الرابط الديني أيضاً بعد اعتناق السلاف للديانة المسيحية، هذا الرابط الثقافي التاريخي اعتبره السلاف إرث يخصهم أي أن بيزنطة كانت بالنسبة لهم امبراطورية مسيحية تخصهم و كانت قائمة في بعض أجزائها على أراضيهم جغرافياً، لذا عملوا على دراسة إرثها لفهم تركيبة الشخصية الثقافية السلافية، لذلك نلاحظ الاهتمام الكبير بدراسة و تنقيب الآثار البيزنطية، كان قد بدأ على يد الأوروبيين الشرقيين و خصوصاً في الدول السلافية بعد الحرب العالمية الثانية. أركان هذه المدرسة الأثرية، كان موزعاً بين المدرسة السوفيتية، المدرسة البلغارية، المدرسة الرومانية، المدرسة اليوغسلافية. التي عملت كمدارس مختصة بعد الحرب العالمية الثانية، وخصوصاً في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، حيثُ نرى نشاط كبير لهذه المدارس في الحقل الأثري البيزنطي العملي. الدافع الأول المحرض في البحث الأثري للشعوب السلافية عن الإرث البيزنطي كان تقاسم الجغرافية في البلقان و شمال و غرب البلقان، أي أن أراضي الإمبراطورية كانت قائمة على أراضي هي اليوم أراضي الدول السلافية ولذلك تركت لديهم الإمبراطورية تأثيراً اقتصادياً و ثقافياً، ثانياً دراسة التاريخ البيزنطي أتاحت للسلافيين فهم تطور الشخصية القومية السلافية، التي صِيغت عبر الاحتكاك بالإمبراطورية البيزنطية، و تشكلت من نفس العوامل المتأثرة بالإمبراطورية البيزنطية من الدين و الثقافة و الاقتصاد، كل هذا دفع السلاف لتأسيس مراكز الدراسات الأثرية للعصور الوسطى وبالأخص البيزنطية، فنرى مركز الدراسات في بلغراد في يوغسلافيا

*** Georg Ostrogorsky: جورج أوستروغورسكي: باحث ومؤرخ روسي ولد في عام 1902.م في مدينة سان بترسبورغ الروسية في ظل حكم القياصرة وتوفي عام 1976.م في مدينة بلغراد يوغسلافيا. انتقل بعد حصوله على تعليمه المدرسي في روسيا إلى ألمانيا جامعة هايدلبرغ لمتابعة تحصيله الجامعي حيثُ تخرج من كلية التاريخ عام 1921.م بعدها انتقل إلى تعميق اختصاصه في الدراسات البيزنطية إلى باريس في فرنسا حيثُ بقي فيها بين عامي 1924-1925 ومن بعدها عاد إلى جامعة هايدلبرغ في ألمانيا لمتابعة دراسة الدكتوراه في التاريخ و حصل عليها في عام 1927.م. كتب جورج أوستروغورسكي الكثير من الأبحاث وألف الكثير من الكتب و قدم الكثير من الدراسات و يُعتبر كتابه (تاريخ الدولة البيزنطية) من أهم الكتب المرجعية التي أُلفت في القرن العشرين والتي درج الباحثون على كتابات مقدمات في التاريخ البيزنطي على شاكلتها. كان جورج أوستروغورسكي من مؤسسي مركز الدراسات البيزنطية في بلغراد. درَس في جامعات أوروبية عديدة لكن أغلب سنين حياته الأكاديمية أمضاها في جامعة بلغراد في يوغسلافيا التي توفي فيها.**

[14] Ravegnani, G., 2008, pp.10-11.

و مركز الدراسات في بلغاريا صوفيا، و مراكز أخرى في رومانيا و روسيا، عملت هذه المراكز على إصدار الكثير من الدراسات و المجلات الدورية المختصة بالموضوع ك Byzantinoslavica الصادرة في براغ عاصمة التشيك عام 1929. مجلة Byzantinobulgarica الصادرة في صوفيا عام 1962. مجلة Zbornik Radova Vizantolokski Instituta الصادرة في بلغراد عام 1957. قامت البعثات الجامعية السلافية أيضاً بدراسات للمواقع الأثرية في البلقان وشبه جزيرة القرم والعديد من المواقع الأخرى في أراضي الأقاليم البلقانية والسلافية[15].

ساعدت هذه الدراسات على وضع أسس علم الآثار المختص بالزمن البيزنطي. بعد انطلاقة الدراسات على يد هذه المدارس وتنقيباتها في المواقع الأثرية البيزنطية في البلقان، نرى مفصلاً آخر مهم دفع البحث الأثري إلى الأمام في تلك الفترة هو؛ تأسيس المركز الأمريكي للدراسات البيزنطية في استنبول عام 1947 الذي قام بإجراء دراسات على المباني الأثرية البيزنطية في العاصمة استنبول، حيث قام بدارسة القصر الكبير ودراسة كنائس المدينة المختلفة، عبر هذه الدراسات تم التوصل إلى وضع جسم علمي للدراسات البيزنطية، تتجلى في ناحيتين؛ أولاً: تقسيم الحقب التاريخية البيزنطية. ثانياً: تقسيم المناطق أو الأقاليم الجغرافية البيزنطية في العالم. حيث تم تقسيم التاريخ البيزنطي إلى ثلاث حقب تاريخية: الحقبة الأولى: هي الحقبة البيزنطية المبكرة Proto Byzantine وتسمى أيضاً العصر الروماني المتأخر وتمتد من 330 ميلادي إلى 610 ميلادي. الحقبة الثانية: هي الحقبة البيزنطية الوسيطة Middle Byzantine و تمتد من 610 ميلادي إلى 1204 ميلادي. الحقبة الثالثة: هي الحقبة البيزنطية المتأخرة Late Byzantine وتمتد من 1204 ميلادي إلى 1453 ميلادي. بالنسبة للمناطق والأقاليم البيزنطية؛ **قسمت الدارسات الأثرية المناطق الجغرافية إلى ست مقاطعات:** إيطاليا، شبه الجزيرة البلقانية، آسيا الصغرى، سوريا، مصر، شمال أفريقيا[16].

رابعاً: سوريا في الدراسات البيزنطية.

عاشت سوريا في ظل الإمبراطورية البيزنطية الحقبة الأولى فقط؛ أي الحقبة البيزنطية المبكرة والتي يطلق عليها المؤرخ الشهير المختص بالتاريخ البيزنطي أوستروغورسكي العصر الروماني المتأخر أو العصر البيزنطي المتقدم. امتدت هذه الحقبة في سوريا من عام 330 ميلادي إلى عام 635 ميلادي؛ أي عاشت سوريا تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية من عهد الإمبراطور قسطنطين الأول إلى عهد الإمبراطور هرقل. ابتدأت الفترة البيزنطية في سوريا في عهد قسطنطين الأول مع بناء القسطنطينية عام 330 ميلادي واتخاذها كعاصمة شرقية للإمبراطورية، حيثُ كانت سوريا من أهم المقاطعات الشرقية في الإمبراطورية، وانتهت الحقبة البيزنطية بالدخول الإسلامي إلى سوريا بعد معركة اليرموك عام 635 ميلادي واستمرار التوسع فيها حتى سقوط عاصمة سوريا البيزنطية أنطاكيا في يد المسلمين وخروجها من يد البيزنطيين[17].

ولاية سوريا البيزنطية: شكلت الولاية جزء مُهم من الامبراطورية سنُحاول الإضاءة عليه في ثلاثة مجالات؛ **أولها:** الأهمية الاستراتيجية كمقاطعة بيزنطية أخذت دور رأس الحربة في الصراع البيزنطي الفارسي، حيثُ كانت من أهم المقاطعات الشرقية في الإمبراطورية، لعبت دوراً كبيراً في الحروب المتواترة بين الإمبراطوريتين في القرنين السادس والسابع الميلادي. **المجال المهم الثاني:** كان الاقتصاد الزراعي الذي ساهم بقوة كبيرة في بناء الاقتصاد في

[15] Zanini, E., 2009, p.26.
[16] Ravegnani, G., 2008, pp.9-10.
[17] Ostrogorsky, G., 1993. pp.95-96.

الإمبراطورية البيزنطية وأعطى نماذج ذات خصوصية مهمة عن التجمعات الزراعية في الإمبراطورية الرومانية خلال العهود المتأخرة وخصوصاً شمال غرب سوريا. **المجال الثالث:** كانت المساهمة الروحية الكبيرة في التاريخ الديني، فهيكلية الإمبراطورية البيزنطية، كانت قد صِيغت مُقوماتها السياسية والثقافية من الشروط الثلاثة؛ الثقافة الإغريقية، الهيكلية السياسية الرومانية، والديانة المسيحية، هنا نرى أن أحد أهم مقومات الإمبراطورية كان الدين، أي كانت الإمبراطورية؛ امتداداً إغريقياً رومانياً بدين مسيحي وهو أحد الحدود الفاصلة بين التاريخ الروماني القديم والتاريخ البيزنطي في العصور الوسطى. كان لحواضر سوريا مساهمة كبيرة في تلك الحقبة نراها بشكل واضح في تأسيس سلسلة من المراكز الدينية المهمة؛ سواء الأديرة أو مراكز خدمات الحجاج. لدينا مظهر ديني بيزنطي مهم برز في تلك الفترة أيضاً في التاريخ السوري كان الرهبنة السورية التي بلغت شهرة واسعة ولاسيما الرهبان العموديين في شمال غرب سوريا[18].

خامساً: الأهمية الاستراتيجية لسوريا في العصر البيزنطي.

في عام 531 ميلادي، قام الفرس الساسانيون باجتياح كبير للأراضي السورية واستطاعوا دخول أغلب مدنها ووصلوا إلى العاصمة أنطاكية، حيثُ قاموا بحصارها، لكن المقاومة البيزنطية الشرسة بقيادة بليزاريوس قائد جيوش الإمبراطور جوستينيانوس، استطاعت رد الهجوم، ليعقد صلح طويل بين الطرفين فيما بعد. في عام 540 قام الإمبراطور الفارسي كسرى الأول Cosroe I بخرق الصلح والهجوم على سوريا واجتياحها حتى وصل إلى مدينة أنطاكية واستطاع دخولها وقام بنفي بعض سكانها من السوريين إلى عاصمة الفرس. في عام 542 استطاع البيزنطيون استرجاع المدينة من الفرس ومن ثم توقيع صلح دام لفترة طويلة. في سنة 611 ميلادي عاد الفرس لاحتلال سوريا واستطاع القائد الفارسي شهر بازار دخول المدينة. في عام 621 استطاع الإمبراطور هرقل طرد الفرس من أنطاكية لتبدأ عميلة مقاومة وتحرير طويلة للتواجد الفارسي في سوريا، استمرت بين عامي 622 و 628 ميلادي استطاع خلالها الإمبراطور هرقل استرداد مدن سوريا بما فيها أنطاكيا و القدس و أعاد خشبة الصليب المقدس الذي نهبهُ الفرس من القدس إلى مكانه[19].

العاصمة أنطاكيا*[20]: في هذا العصر البيزنطي أو كما يسمى في سوريا العصر الروماني المتأخر؛ كانت أنطاكيا عاصمة سوريا السياسية والثقافية، بالإضافة لكونها عاصمة المسيحية السورية والكرسي الرسولي الأهم، حتى اليوم هي

---

[18] Zanini, E., 2009, p.53.

[19] Ostrogorsky, G., 1993. pp.85-90.

***مدينة أنطاكيا: عاصمة سوريا في العصور الكلاسيكية، تقع شمال غرب سوريا على الضفة اليسرى لنهر العاصي في موضع غير بعيد عن البحر. تم تأسيس المدينة في عام 301 ق.م من قبل سلوقس نيكاتور وسُميت على ذكرى والده أنطيوخوس، كانت من أمهات المدن في العصر الهلنستي وحازت على شهرة كبيرة كثالث أكبر مكتبة في التاريخ القديم بعد مكتبة الإسكندرية ومكتبة بيرغامو. في العام 64 ق.م انتقلت المدينة إلى أيدي الرومان حيثُ بقيت عاصمة ولاية سوريا الرومانية، وتمتعت في العصر الروماني باستقلالية كبيرة. وبسبب موقعها الاستراتيجي لعبت المدينة دور كبير في ازدهار التجارة والفكر وأدى هذا التطور لأن تصل لمستوى عالمي عالي من الرقي دفع إلى تسميتها (ملكة الشرق) في العصور الكلاسيكية، من حظ المدينة أيضاً أنها أنجبت المؤرخ ليبانيوس الأنطاكي في القرن الرابع الميلادي والذي أرخ ووثق لتاريخ المدينة ولعب دوراً كبيراً في معرفتنا للمعلومات التاريخية عن المدينة. وفيها سُمي أتباع المسيح لأول مرة باسم المسيحيين لتمييزهم عن اليهود. من الشخصيات المسيحية الشهيرة التي بشرت بالديانة المسيحية في تاريخ المدينة في العصر الروماني بطرس الرسول وبولس الرسول و برنابا الذين كانوا زُعماء الجماعة في أنطاكيا و لاسيما بطرس و برنابا اللذان كانا يعظان في شارع سيغون الشهير في المدينة. في العصر البيزنطي استقرت فيها جالية مسيحية مهمة لعبت دوراً كبيرا في تاريخ الديانة المسيحية وانتشارها**

عاصمة المسيحية السورية، لا زالت الكنيسة حتى اليوم في دمشق تحمل لقب كنيسة أنطاكية، وبطاركتها يحملون لقب بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق، في صدى يعكس مدى أهمية أنطاكيا في الذاكرة الجمعية السورية، كعاصمة تضم أو تجمع شمل سائر المشرق. لعبت كرسي المدينة الرسولية المؤسسة من قبل بطرس وبولس وبرنابا دروراً كبيراً من الناحية الكنسية واللاهوتية، كأحد أقدم وأهم الكراسي الرسولية في العصر البيزنطي حيثُ لعبت هذا الدور مع الكراسي الرسولية الأخرى في الإمبراطورية: الإسكندرية، القدس، القسطنطينية وروما. أهمية مدينة أنطاكيا في التراث الإنساني العالمي لذلك العصر تأتي من قصتها الروحية مع المسيحية. لمدينة أنطاكيا مع المسيحية قصة خاصة، بدأت مع انطلاق الديانة على يد تلاميذ السيد المسيح في السنين الميلادية الأولى، لتتبلور فيما بعد بصبغةٍ عالمية في العهد البيزنطي، قصة المجموعة المسيحية الأولى في المدينة، تُعتبر واحدة من الدواعي الرئيسية لتميُز المدينة حيثُ لعبت أنطاكيا دوراً كبيراً في نشوء الجماعة المسيحية الأولى وأصبحت صِلة الوصل بين العصور القديمة والعالم الوسيط كجسر ثقافي[21].

أحدُ الحدود الفاصلة بين التاريخ الروماني والبيزنطي كان الدين، أي أن الإمبراطورية كانت؛ امتداداً إغريقياً رومانياً بدين مسيحي. كان البداية مع مرسوم التسامح الذي أصدرهُ قسطنطين الكبير والمعروف بمرسوم ميلانو لعام 312 ميلادي والذي سبقته براءة ساردیكة عام 311.م حيثُ انطلقت بعده الحرية الدينية المسيحية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية كدين مُعترف به شرعياً من الحكام، بعد أن عانى لفترات كبيرة من التضييق والخناق. بعدها أخذت المسيحية قوتها الكبيرة وانطلاقتها الواضحة من خلال القرار الإمبراطوري المهم الآخر؛ أي بعد قرار الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذي أغلق في عام 385 ميلادي كافة المعابد الوثنية في أرجاء الإمبراطورية، ثم في عام 392 ميلادي، أصدر مرسوماً بمنع ممارسة أو اعتناق أي دين مُخالف للدين المسيحي المرافق للإيمان الأرثوذكسي النيقاوي الذي أُقِر في مجمع نيقية الكنسي*[22] عام 325 ميلادية تحت رعاية الإمبراطور قسطنطين الكبير. بهذا المرسوم من قبل الإمبراطور ثيودوسيوس الأول أصبح الدين المسيحي الأرثوذكسي دين رسمي وحيد للإمبراطورية[23].

من هُنا كانت الانطلاقة الحرة لظهور الفن والثقافة المسيحية عمرانياً ولاهوتياً في أرجاء الإمبراطورية وخصوصاً في مدن سوريا التي لعبت دروراً كبيراً في هذا العصر. سقطت العاصمة أنطاكيا في القرن السابع الميلادي بيد العرب المسلمين، لتضمحل أهميتها في التاريخ خلال السيطرة الإسلامية ولتقضي أيامها بلعب دور حصن مُتنازع عليه من

في الإمبراطورية البيزنطية ومنها أيضاً خرج الأسقف يوحنا المعروف بفم الذهب بسبب قوة خطابته وعظاته و وصل الأسقف يوحنا فم الذهب إلى الكرسي الرسولي في العاصمة القسطنطينية.

[21] Downey, G., *A History of Antioch in Syria: from Seleucus to the Arab Conquest*, Princeton university, 1974, pp.1-5.

***مجمع نيقية الكنسي The First Council of Nicaea: هو أول مجمع كنسي مسيحي بصبغة إمبراطورية عالمية، تمت الدعوة إليه من قبل الإمبراطور قسطنطين الكبير في القرن الرابع الميلادي وكان لهُ أهداف عديدة من عقد هذا المجمع في مدينة نيقية شمال غرب آسيا الصغرى. القضايا الدينية التي دعا المُجمع لحلها كانت القضية الآريوسية وصراعها مع البابا إسكندر الأول رئيس كنيسة الإسكندرية أهم كراسي الإمبراطورية بعد تقاليدها الراسخة منذ اعتمادها ككرسي رسولي لأحد حواريي السيد المسيح ألا وهو مرقص. لم يعترف آريوس بخلود طبيعة المسيح وقال بأنه كان في زمن من الأزمان غير موجود وهو ما رفضتهُ كنيسة الإسكندرية وأقرت أن كلام آريوس بدعة وأدان المجمع آريوس وأتباعهُ وحُرِقت أغلب كتبهِ وتعاليمهِ، وأيضاً نظم المجمع الكنسي في نيقية الشؤون العقائدية كالاحتفال بالأعياد الدينية المسيحية ومواعيدها حتى تُصبح موحدة في كل الإمبراطورية. حضر المجمع قرابة 300 أسقف أغلبهم من المقاطعات الشرقية وكان المُجمع قد صاغ العلاقة بين الكنيسة والامبراطورية واستطاع الإمبراطور قسطنطين ضبط العلاقة بين المؤسستين وبذلك ضمن وحدة أراضي الإمبراطورية وخصوصاً في الشرق حيثُ كانت النزعات الدينية تُعرض الوحدة الإمبراطورية للمشاكل والانهيار في أحيان كثيرة.**

[23] Ravegnani, G., 2008, p.21.

قبل البيزنطيين والمسلمين ومن قبل المسلمين والصليبيين. كانت البطريركية قد انتقلت إلى العاصمة السورية دمشق بعد الاحتلال العثماني للمدينة في القرن الخامس عشر ولا تزال حتى اليوم في مقرها في الشارع المستقيم في دمشق القديمة. في العصر العثماني همشت المدينة حتى وصلت إلى بلدة بائسة أو شبه مهجورة. بعد الحرب العالمية الأولى استولت فرنسا على أنطاكيا، في تلك الفترة وضعت المدينة مع لواء الإسكندرون تحت حمايتها، حيث تخلت عنها في عام 1939 للدولة التركية، لا زالت تحت الاحتلال التركي حتى اليوم، عملت تركيا أيضاً في ستينيات القرن الماضي على تغيير اسم المنطقة إلى اسم مقاطعة هاتاي.

في العصر البيزنطي محور البحث ثَبتت مدينة أنطاكيا دورها الاستراتيجي كعاصمة لسوريا، كما كانت في العهدين الإغريقي والروماني، كان على الأباطرة البيزنطيين دوماً الاهتمام بها كعاصمة سياسية ودينية، فقد كانت في العصر البيزنطي تحمل اسم ميتروبوليس Metropolis أي من أمهات المدن في الإمبراطورية الرومانية المسكونية؛ أي العالمية، مما يدل على أهمية المدينة بين مدن العصر البيزنطي. بدأ الاهتمام بها في هذا العصر عبر الإمبراطور قسطنطين الكبير Costantinus I الذي عمل في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي على تأسيس كنيسة بيت الذهب في المدينة، التي كانت من أفخم كنائس تلك الحقبة، لضخامتها وكثرة تكاليفها، لم يكتمل بناؤها في عهده، لينتهي في عهد ابنه الإمبراطور كونستانتيوس. أيضاً بُنِيت بجوارها الأديرة المسيحية الشهيرة التي كان من أشهرها دير بابيلاس؛ وهو من أول النماذج في العالم عن الكنائس التي صُمِمت على شكل الصليب اليوناني، والذي تضم سوريا في الشمال الغربي أفضل النسخ المحفوظة عن هذه الأبنية حتى اليوم؛ ألا وهو دير سمعان العمودي الذي أُسِس في عهد الإمبراطور زينون على شرف وذكرى الراهب سمعان العمودي السوري، في المكان الذي مارسَ فيهِ طقوس الرهبنة والتي ينتصبُ فيها عموده الشهير، كان دير سمعان من أول الأديرة الكنسية في العالم التي تضُم مجمعاً دينياً متكاملاً وملحقات للرهبان[24].

سادساً: الازدهار الاقتصادي والعمراني في سوريا في العصر البيزنطي.

بين فترة حكمي الإمبراطور زينون Zeno 474–491 ميلادي و الإمبراطور أنستاسيوس Anstasius 491–518 ، عاشت سوريا ومدنها ازدهار واستقلالاً اقتصادياً كبيراً، قام بدفعه و تطويره فيما بعد الإمبراطور جوستينيانوس الكبير الذي اهتم و دعم المدن بالإضافة لدعمه الأرياف في سوريا، حيثُ تركت اهتماماته آثاراً واضحة في التجمعات الكبيرة والصغيرة في سوريا و العائدة إلى عهده أي القرن السادس الميلادي، نراهُ واضحاً في العاصمة أنطاكيا، التي قفزت اقتصادياً و ثقافياً مع ريفها، هذا التقدم وفرته لها منطقة الهضبة الكلسية شرق أنطاكيا؛ المعروفة بمنطقة المدن المنسية أو الميتة شعبياً، و المعروفة علمياً بالهضبة الكلسية، أو القرى الزراعية في الشمال السوري، أو بيلوس Belus.

على الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي عاشتهُ المدينة بين حكمي الإمبراطورين زينون و أنستاسيوس، إلا أن المدينة شهدت فيما بعد الكثير من المشاكل السياسية، خصوصاً في عهد الإمبراطور جوستين Jiustinus 518–527 ميلادي، حيثُ عاشت المدينة فترة اضطهاد ديني لليعاقبة المونوفيسيين، مما أدى إلى الكثير من الاضطرابات و الفوضى، و عمت المدينة حركة احتجاجات كبيرة ضد الإمبراطور جوستين، ذهب ضحيتها الكثير من السوريين، لتتعرض أخيراً في عام 527 ميلادي لزلزال مدمر أتى على العديد من الأبنية الهامة الرسمية و العامة. في نهاية عام 527 مع وصول الإمبراطور جوستينيانوس الكبير Justiniaus I عمل الإمبراطور على دعم المدينة وأعاد بناء

[24] **Zanini, E., 2009, p.58.**

الأحياء المتضررة، وزودها بجسور جديدة وبسور جديد، أيضاً قام بترميم أغلب المباني المتضررة وعمل على استرضاء اليعاقبة ومسيحيي المدينة، لتعود أنطاكيا إلى الازدهار في عهده بعد فترة طويلة من الاضطرابات[25]. مراكز الإرث الثقافي البيزنطي كثيرة في سوريا، تُلاحظ في مناطق عديدة، تمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، عبر مراكز مهمة قائمة حتى اليوم: كالقرى الزراعية في منطقة الهضبة الكلسية في شمال غرب سوريا، مدينة الرصافة، قصر ابن وردان، مدينة الأندرين، قصور الغساسنة في حوران والجولان. مركز مهم لعب دوراً واضحاً في العصر البيزنطي في سوريا؛ هو منطقة الهضبة الكلسية (المدن المنسية) Belus التي تعتبر الضاحية الشرقية أو الريفية لأنطاكيا، منطقة ذات خصوصية عمرانية كبيرة، تركت أمثلة معمارية واضحة، يمكن الاعتماد عليها في الدراسات البيزنطية في العالم، خصوصاً أنها أمثلة محفوظة بشكل جيد، يمكن أن تعطي صورة واضحة عن مراكز التجمعات العمرانية في سوريا في العصر الروماني المتأخر والبيزنطي، فالكثير من هذه المواقع عند الدراسة من قبل البعثات الأثرية الزائرة كان قائماً بشكل شبه تام، مما أتاح لعملية الرفع الأثري المثالي و قدم المجال للحصول على مادة علمية نادرة في العالم عن هكذا دراسات، وهكذا أماكن وحقب تاريخية[26].

سابعاً: التنقيبات الأثرية وتوثيق المواقع البيزنطية في سوريا: بدأ الاهتمام بمواقع الإرث البيزنطي في سوريا منذ أواسط القرن التاسع عشر، بداية مع الفرنسي دي فوغويه M. De Vogue الذي قام بزيارة المنطقة و إجراء المسح الأول في ستينيات القرن التاسع عشر برفقة W.H. Waddington[27].

بعدها زارت المنطقة بعثتين أثريتين أميركيتين بين أعوام 1899 –1905 و أجرت أبحاث مهمة عن المنطقة بقيادة H. C. Butler الذي عَمِل على دراسة الكنائس في شمال وجنوب سوريا و كتب عمله المهم[28] Early Churches in Syria. بعد عمل البعثة الأمريكية في بدايات القرن العشرين، تم الدفع بالبحث والدراسة لمنطقة الهضبة الكلسية وخصوصاً على يد الباحث الروسي الفرنسي جورج تشالنكو G. Tchalenko والباحث الآخر جون لاسوس J Lassus. الذي ركز في دراسته على الكنائس فقط [29]. تطور البحث في المنطقة كثيراً في خمسينيات القرن الماضي على يد جورج تشالنكو؛ الذي قام بدعم من المركز الفرنسي للدراسات البيزنطية بدراسة شاملة للنسيج العمراني في الهضبة الكلسية شمال غرب سوريا، التي وثق لها بشكل كامل في أعماله الضخمة عن المنطقة، عمله الأول: Villages Antiques de la Syrie du Nord والعمل المهم الثاني: Eglises de villages de la Syrie du Nord وقام عبر أبحاثه الأكاديمية بتغيير الاسم الشعبي المتعارف عليه للمنطقة ألا وهو المدن الميتة، إلى اسم علمي وهو القرى الزراعية والرومانية في الشمال السوري، الذي اعتمد لاحقاً من قبل أغلب الباحثين. بعد جورج تشالنكو تابع الباحث الفرنسي جورج تات دراساته في المنطقة، من النقاط التي توصلت إليها أعمال التنقيب في المنطقة، حيثُ استطاع جورج تات عبر انطلاقتهِ من النتائج التي توصل إليها تشالنكو، توفير الوقت والجهد للوصول لنتائج مهمة في دراسته للمنطقة أغنت البحث الأثري وأضافت له الكثير. تجدر الإشارة إلى أنه هناك الكثير من الباحثين والبعثات التي عملت في المنطقة، كنا قد ذكرنا أهمهم هنا، فلا يتسع المجال لذكر الجميع. يُذكر أن الأبنية السورية البيزنطية، كانت

[25] **Marcone, A., *Storia Dell' Agricoltura Romana*, Carocci, Roma 2005, pp.193-195.**
[26] **Zanini, E., 2009, p.58.**
[27] **M. de Vogüé, *Syrie centrale. Architecture civile et religieuse du I au VIIIe siècle*, 2 voll., Paris 1865-1877.**
[28] **Butler, H, C., *Early Churches in Syria, Fourth to Seventh Centuries*, a cura di E.B. Smith, Princeton 1929 (Amsterdam 1992).**
[29] **Lassus, J., Tchalenko, G., *Ambons syriens*, CahA 5, 1950, pp.75-122.**

قد ذُكِرت في كتب المؤرخين البيزنطيين التي تُصنف كمصادر، فمثلاً لدينا كتاب الأبنية ***De aedificiis*** للمؤرخ البيزنطي بروكوبيوس القيصري[30]*، الذي أفرد الكتاب الثاني من عملهِ الضخم الأبنية للحديث عن المنشآت البيزنطية في سوريا و بلاد ما بين النهرين[31].

خلالَ هذا العصر لَعِبت سوريا من شمالها إلى جنوبها في فلسطين، دوراً مهماً في الاقتصاد الكلي للإمبراطورية البيزنطية، عاشت فيها المنطقة المذكورة ازدهاراً كبيراً ظهرَ في ثلاثةِ جوانب؛ **أولها:** استمرارية نمو وتطور التجمعات السورية العائدة للعصر الروماني. **ثانيها:** تطور الاقتصاد الزراعي والتجاري الزراعي عبر تطور المنتوجات والمحاصيل المتنوعة العائدة للتطور في أساليب الإنتاج الزراعية السورية في تلك الفترة. **ثالثها:** تأسيس سلسلة من المراكز الدينية المهمة؛ سواء الأديرة أو مراكز خدمات الحجاج في الأماكن المقدسة المسيحية.

هذا العصر الذهبي الذي عاشتهُ سوريا في القرنين الخامس والسادس الميلادي، عائد بالدرجة الأولى للاهتمام من قبل الأباطرة البيزنطيين بسوريا كمقاطعةٍ شرقيةٍ مهمة على حدودهم مع الفرس، وكمركز ديني مهم للإمبراطورية، على اعتبار أنها الأرض المقدسة بالنسبة للمسيحيين. هذا الاهتمام نراه بوضوح في عهد الإمبراطور جوستنيانوس الكبير الذي أولى أهمية كبيرة لمدن سوريا وعمل على ترميم الكثير من أبنيتها وأسوارها ومراكز مدنها، كما عمل على نشر الأمن في أنحائها، لتأمين طرق التجارة، هذا الأمن والازدهار في التجارة أدى إلى انتعاش واستقرار اقتصادي ترى آثاره بوضوح في المدن والبلدات السورية التي عادت للانتعاش في عهد جوستينيانوس، هذا الازدهار لم يقتصر على المدن والعواصم الكبرى، بل وصلت آثاره للريف السوري يرى بوضوح في منطقة الهضبة الكلسية. هذا الاقتصاد الزراعي المزدهر وصل الذروة في مسار القرن السابع الميلادي، حيثُ وفر كميات كبيرة من الإنتاج، أوجدت القدرة على التصدير، الذي وفر ثراء أتاح بدوره المناخ لظهور تطور عمراني نراهُ في أماكن عدة من سوريا؛ مجمع سمعان العمودي، أيضاً أدميترا بيلس قرب أنطاكية الذي خُصِص لسمعان العمودي الصغير[32].

ثامناً: مراكز حضارية مؤثرة في سوريا في العصر البيزنطي:

منطقة الهضبة الكلسية في سوريا: هي مجموعة من القرى الزراعية الرومانية البيزنطية، أحصى المسح الأثري 700 قرية منها في شمال غرب سوريا. تتموضع القرى في الجهة الشرقية من أنطاكيا وتمتد بين حلب وحماه وأنطاكيا في منطقة طولانية محصورة بين هذه المدن. ترجع هذه القرى تاريخياً لفترات محددة، من حيث التأسيس والازدهار، من حيثُ التأسيس؛ تتراوح فترات تأسيسها بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي. من حيثُ الازدهار

[30]* بروكوبيوس القيصري: مؤرخ بيزنطي من مواليد مدينة قيسارية الفلسطينية التاريخية في بدايات القرن السادس الميلادي. تُشير المعلومات إلى أن المؤرخ بروكوبيوس قد تم إرساله في عام 536 ميلادية من قِبَل والده من مدينة قيسارية إلى مدينة غزة لتلقي تعليمه. فيما بعد أصبح بروكوبيوس من أكثر المقربين للإمبراطور جوستينيان الكبير ووثق أخباره و عصرهُ بحرفية لافتة و بالإضافة إلى المصدرين التاريخين اللذين ألفهما في التاريخ والمعروفان باسم التاريخ السري والعمل الآخر المعروف بحروب جوستينيان، فإن للمؤرخ بروكوبيوس القيصيري كتاب عن العمارة معروف باسم كتاب الأبنية *De aedificis* وثق فيه الأبنية الموجودة في المقاطعات الشهيرة في الإمبراطورية في زمن الامبراطور جوستينيان وقد قسم عمله التوثيقي الأبنية إلى ستة كتب وثق في الكتاب الأول منها للأبنية التي شيدها جوستينيان والامبراطورة تيودورا في العاصمة و خصص الكتاب الثاني للحديث عن الأبنية و التحصينات التي شيدها الإمبراطور في سوريا و بلاد ما بين النهرين. يُعتبر كتابهُ من المصادر الوثائقية الأثرية للأبنية في العصر البيزنطي المتقدم.

[31] Zanini, E., 2009, p.35.

[32] Tate, G., *Les campagnes de la Syria du Nord à l'époque protobyzantine*, in Hommes et richesses (1989), pp.63-78.

الاقتصادي؛ عاشت ازدهارها الكبير في العصر البيزنطي وخصوصاً بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين. تضمُ هذه المجمعات قرى وبلدات أثرية مهمة: كمجمع سمعان العمودي والدير الشهير، مدينة سرجيلا، الباره، رويحة، سرجبيلا، جرادة، براد، باقرحا، خراب شمس، قلب لوزه وغيرها الكثير من القرى والبلدات المهمة المتوزعة على الهضاب الكلسية المتنوعة في المنطقة. أُسِست هذه المدن في منطقة ذات طبيعة كلسية جيولوجياً، وعليه فقد استُخدِم فيها الحجر الكلسي المحلي في البناء. يُطلق الباحثين المختصين في الغرب على هذه المنطقة تسمية Belus Massif[33]* تحتل هذه المراكز الاستيطانية الزراعية مساحة جغرافية ممتدة بعرض 20–40– كم وامتدادها طولياً يصل إلى 140 كم. تمتد طولياً بين مدينتي حماه وحلب وعرضاً بين حلب وأنطاكيا[34].

تقع القُرى الزراعية بين ثلاث هضاب رئيسية في المنطقة والكتل الهضابية الثلاثة التي ترافق هذه المدن هي: في الشمال جبل سمعان، الذي يضم دير سمعان الشهير، بالقرب منه لدينا جبل الشيخ بركات الذي يرتفع 876 متر تنتهي الكتلة الأولى في الشمال على حواف سهل الدانا. في الوسط أو المركز لدينا جبل باريشا، جبل الأعلى، جبل الدويلة والوسطاني، حيث تتوضع بينها أودية عميقة متطاولة. في الجنوب لدينا جبل الزاوية وجبل أريحا .

على الأقل 60 موقع من المواقع الأثرية البيزنطية في المنطقة محفوظ بشكل جيد. مساحة القرى والبلدات مختلفة من قرية إلى أخرى، أكبر تجمع فيها هو مدينة الباره التي تمتلك مخطط عمراني يتراوح بين 2 كم طولاً و 500 م عرضاً وبذلك بلغت مستوى مدينة صغيرة. من الملاحظ في هذه البلدات الصغيرة العائدة للحقبة الرومانية والبيزنطية؛ غياب مستلزمات المدينة الرومانية: الساحة، ميدان سباق الخيل، المسرح، شبكات تمديد المياه وغياب خدمات البنى التحتية من مشاريع صرف صحي متكاملة وغيره، أيضاً كانت الطرقات في هذه القرى صغيرة جداً، يتراوح عرضها بين 3 إلى 4 أمتار ومهمتها وصل أجزاء القرى مع بعضها وخصوصاً المباني الأساسية فيها؛ ألا وهي المنازل والبيوت. تتكون بيوت الهضبة الكلسية من نموذج سكني بطابقين؛ الطابق الأعلى للسكن، الطابق الأرضي للأغراض الإنتاجية أو الزراعية، العديد من البيوت تضم في الطابق السفلي معصرة لخمر الكرمة أو لزيت الزيتون، في أغلب البيوت، لدينا رواق ينفتح على الحديقة أو الأراضي الزراعية، لدينا أيضاً رواق آخر يصل بين الطابقين في المنزل عبر وصلهما بدرج[35] . عنصر معماري آخر مهم جداً في المنطقة هو الكنائس، انتشرت الكنائس في أغلب القرى والتجمعات الزراعية للهضبة الكلسية، قدمت أمثلة عن كنوز عمرانية تعطي فكرة واضحة عن العمارة في الأرياف خلال العصر المسيحي المبكر والعصر البيزنطي المسيحي بنماذج وطرز فريدة، أعطت خصوصية كبير للمنطقة[36]. أغلب الكنائس في المنطقة بنيت على الطراز البازيليكي الكلاسيكي: الذي يتكون من بناء مستطيل بثلاثة أروقة تتصدر الأروقة الثلاث في المنتصف الحنية الرئيسية؛ التي تتواجد في الرواق المركزي، تفصل بين الرواق المركزي والأروقة الجانبية أقواس الرواق المركزي التي تنفتح على أطرافه الجانبية أي؛ الأروقة الأخرى للكنيسة الأيمن والأيسر؛ اللذان يجاوران الرواق الرئيسي في النظام البازيليكي، هذه الأروقة الجانبية عادة ما تكون أقل عرضاً من الرواق المركزي وسقفها أقل علواً. بنيت هذه

[33]* تُشير لفظة Massif إلى معنى الهضبة في اللغة الفرنسية أما لفظة Belus فهي لفظة رومانية قديمة أُطلقت على المنطقة الواقعة شرق مدينة أنطاكية ويتم تحديدها اليوم بالمنطقة الواقعة بين أفاميا وحلب وأنطاكيا. يُطلق الفرنسيون اسم آخر على المنطقة في الأبحاث الأثرية للإشارة إلى شمال غرب سوريا حيثُ تُدعى المنطقة أحياناً في المراجع الأثرية الفرنسية باسم massif calcaire والتي تعني الهضبة الكلسية في إشارة إلى طبيعة الهضاب والجبال في المنطقة.

[34] Tate, G., 1989, pp.63-78.

[35] Zanini, E., 2009, p.35.

[36] Tchalenko, G., Baccache, E., *Eglises de village de la Syrie du Nord*, 2 voll., Paris 1979-1980, pp.15-20.

الكنائس من مواد محلية كالحجارة الكلسية لجسم البناء، والخشب والقرميد للسقوف المائلة، استُخدم الخشب لتغطية السقوف المائلة التي تتكون من جملون علوي يغطي الرواق الرئيسي في الكنيسة وعلى جانبيه سقفين أقل انخفاضاً بمستوى واحد ومائل، يغطي الأروقة الجانبية للكنيسة، أغلب السقوف اليوم غير موجودة بسبب فناء الخشب. استخدمت الزخرفة بكثرة في القرى الزراعية وخصوصاً على البوابات والواجهات والسواكف وأقواس الكنائس سواء في الداخل أو على النوافذ، كانت أغلب الزخرفات متركزة على نماذج نباتية في الأكثر، وبعضها كان مكوناً من صلبان صغيرة والبعض الآخر زخارف كتابية دينية مسيحية باللغتين اليونانية والسريانية. اللافت والجديد في منطقة الهضبة الكلسية عن بقية العمارة الدينية العائدة لتلك العصور اختراع الملحقات المشهورة في تاريخ عمارة الكنائس والتي وجدت للمرة الأولى في سوريا، حيث تم و لأول مرة في منطقة الهضبة الكلسية استخدام عنصرين معماريين جديدين، تمت إضافتهما بشكل مجاور للحنية؛ هذين العنصرين هما: غرفة التبرعات، و غرفة الناووس أو مصلى القديس، الأولى تعرف اليوم ب **Diakonikon** و تعرف الأخرى ب **Martyrion** باستخدامين مختلفين؛ الأول **الدياكونيكون:** يتكون من غرفة صغيرة يتم الوصول إليها عبر الحنية الرئيسية، تستخدم كغرفة لوضع أو لتخزين المواد التي يتم التبرع بها من قبل المؤمنين في المنطقة، يتوضع الدياكونيكون عادة في الجهة الشمالية من الكنيسة. في الحالة الثانية أي العنصر المعماري الآخر؛ **المارتيريون:** يتكون من غرفة صغيرة أدرج فيها ناووس لأحد القديسين أو ذخائر من ذكرى القديسين المرتبطين بذكرى الكنيسة أو تأسيسها وتضم الغرف إضافة للناووس مصلى للتعبد أو مذبح مكرس للقديس، عادة ما يتوضع إلى الجنوب من الرواق المركزي للكنيسة، باستثناءات قليلة كما في كنيسة القديس جوليانوس في براد حيثُ يتوضع ضريح القديس مارون إلى الشمال من الرواق الرئيسي للكنيسة[37].

*[38] مدينة الرها في العصر الروماني–البيزنطي.

مدينة الرها في اللغة العربية، تُلفظ أورهاي في اللغة السريانية. في اللغة اليونانية: أديسا. كانت الرها مهد الأدب السرياني في العصور القديمة. في العصور الكلاسيكية وفي حين كانت مدينة أنطاكيا عاصمة التقاليد السورية الغربية في العصور الكلاسيكية، كانت الرها عاصمة التقاليد السورية الشرقية. ذاع صيت المدينة عبر قصتها الشهيرة في الأدبيات المسيحية؛ قصة المراسلات الشخصية بين ملكها السرياني أبجر الخامس بن معنو و بين المسيح بن مريم.

---

[37] **Tchalenko, G., Baccache, E., 1979–1980, pp.15–20.**

*** مدينة الرها: في اللغة السريانية: ܐܘܪܗܝ تلفظ أورهاي، في اللغة اليونانية: Ἔδεσσα إديسَا. كانت الرها مهد الفلسفة والأدب السرياني. في حين كانت مدينة أنطاكيا عاصمة التقاليد السورية الغربية في العصور الكلاسيكية، كانت الرها عاصمة التقاليد السورية الشرقية. تتموضع مدينة الرها جغرافياً في أعالي الجزيرة الفراتية، في شمال سوريا بين نهري دجلة والفرات. بنيت في موضع أقرب إلى الفرات منه إلى نهر دجلة، تبعد عن الفرات 8 كيلو متر إلى الشرق. تتوزع أحياء المدينة على السهل والهضبة، يخترقها نهر ديصان الشهير في تراث وأدبيات المدينة، يعتبر النهر جزءاً من نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات. يحيط النهر بمدينة الرها من الشمال إلى الجنوب الشرقي، ينحدر باتجاه الجنوب حيث يلتقي مع نهر كولاب، الذي يمر في مدينة حران حيث يصب في نهر البليخ. إحاطة النهر بالمدينة، أتاح لها مناعة تحصينية كبيرة من الشمال والجنوب الشرقي، بالإضافة إلى إحاطتها من قبل جبل الرها المقدس في الشمال الغربي، الذي يعرف اليوم بجبل طوب داغ، الجبل مليء حتى اليوم بالكهوف والقلايات، التي كان الرهبان السريان يستخدمونها للتعبد في المنطقة، وصل عددها إلى ثلاثمائة من أشهرها كهف القديس أفرام السرياني نفسه: الذي كان من أوائل الشخصيات المسيحية، التي رسخت تقاليد الرهبنة السورية في بداية القرن الرابع الميلادي. من أشهر المعالم المتبقية اليوم في المدينة، الأماكن المرتبطة بالأدبيات الأسطورية؛ ككهف النبي إبراهيم، التي توجد في جامع الرها اليوم وبركة إبراهيم الشهيرة، البركة الأخرى المسماة بركة زولها (البركة المقدسة)، أيضاً لدينا بقايا القلعة المعروفة بقلعة النمرود، الذي ينسب له سكان المدينة في إرثهم الشفوي تأسيس المدينة.**

تحتل هذه القصة شهرة عالمية في تاريخ المدينة الديني. تحولت الحاضرة السورية عبر اهتمام ملوكها بالديانة المسيحية منذ البدء للعب دور ديني مركزي بالغ الأهمية في نشر المسيحية بعد أنطاكيا عبر الكرازة والتبشير في الديانة المسيحية في البلدان القريبة والبعيدة. عملت الأبحاث التاريخية على تسليط الضوء على مدينة الرها السورية في العصر الروماني المتأخر (البيزنطي) حيثُ كانت الرها أسقفية في العصر البيزنطي تابعة للكنيسة المشرقية السريانية[39]. كانت كنيسة المدينة تتبع تنظيمياً لإكليروس يقع ضمن أراضي الإمبراطورية الفارسية، سواء في كرسي المدائن أم في كرسي ساليق الكنسي (سلوقية جنوب بغداد)؛ الكرسي السيادي على كافة الكراسي السريانية في منطقة ما بين النهرين. كان موقع الرها الجغرافي في أعالي الجزيرة السورية الفراتية يفرضُ تبعيتها السياسية أغلب الأحيان إلى الإمبراطورية البيزنطية، بينما كانت تبعيتها الروحية للكراسي الدينية في الإمبراطورية الفارسية. سبب لها هذا الوضع، الكثير من المشاكل والنزاعات، كانت الكنيسة دوماً تتأثر بالسياسة وبالعلاقة السياسية بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. ففي سيطرة الفرس على المدينة، نلاحظ دوماً وجود أسقف مونوفيسي من أصحاب الطبيعة الواحدة على كرسي المدينة، بينما نرى في أوقات السيطرة البيزنطية وجود أسقف خلقيدوني من أصحاب الطبيعتين. تأثرت الكنيسة كثيراً بهذا الوضع ودفعت الكنيسة السريانية أثمان كبيرة، بسبب الصراع السياسي لذلك الزمن. حيثُ تعرضت الكنيسة السورية فيما بين النهرين ومن ضمنها كنيسة الرها لكثير من الاضطهادات الدينية في العصور الكلاسيكية من قبل الأكاسرة الفرس والأباطرة البيزنطيين على السواء[40].

*[41]مدينة الرصافة:

تقع مدينة الرصافة في شمال سوريا، قرب مدينة الرقة وعلى بعد خمسين كيلو متراً منها. تعود المدينة إلى عهود قديمة جداً، يُعتقد أنها ترجع إلى الزمن الآشوري. إلا أن أهمية الرصافة الاستراتيجية ابتدأت في العصر الروماني، كونها موقع حصين على الحدود بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، فقد اتخذ الرومان منها حصناً لصد هجمات الفرس، حيثُ بنيت فيها قلعة بسيطة وأقام الرومان فيها وحدة من الفرسان المحليين للتدخل السريع عند الضرورة. لكن تطوراً كبيراً حدث للمدينة منذ مطلع القرن الرابع الميلادي، بعد أن استشهد فيها سركيس (سيرجيوس) الضابط العربي في الجيش الروماني، والذي قتله الرومان، لرفضه التخلي عن ديانته المسيحية أثناء حقبة اضطهاد المسيحيين في روما. حيث عدّ سيرجيوس من القديسين الذين يُمجدون في البادية وسورية وبلاد ما بين النهرين، وتحول قبره الذي دفن فيه خارج أسوار الرصافة إلى مزار يقصدهُ المؤمنون والزوار من كل المنطقة، وقد اجتمع في المدينة خمسة عشر مطراناً وقرروا بناء كنيسة فيها على اسم القديس سيرجيوس، وما لبث هذا الاسم أن أصبح اسم المدينة فصارت تعرف بـ "سيرجيوبوليس"، وأصبحت مركز أسقفية في العصر البيزنطي تحت نفوذ الغساسنة، الذين شيدوا فيها الكثير من المباني، وينسب إلى الملك الغساني (الحارث الثاني) فضل ترميم الأسوار، وتشييد الكاتدرائية الكبرى في الرصافة، وبنى ابنه المنذر بن الحارث خزانات المياه ودعم الأسوار. وبلغت المدينة في أواخر القرن الخامس وخلال القرن السادس الميلادي قمة الازدهار، وأدى غناها إلى طمع الفرس بغزوها، مما دعا الإمبراطور البيزنطي جوستنيانوس لاتخاذ تدابير

---

[39] Harrak, A., "*The Ancient Name of Edessa*", Journal of Near Eastern Studies 51, (1992), pp. 209-214.

[40] أبونا، ألبير، *تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية*، الجزء الأول، دار المشرق، بيروت 1999، ص 27-30.

*** تُعتبر مدينة الرصافة من النماذج المهمة في دراسة الحواضر العائدة إلى الفترة البيزنطية بسبب الحفاظ على أغلب نسيجها المعماري وأسوارها وخصوصاً دراسة كنائسها الواضحة المعالم والتي أعطت صورة واضحة عن العمارة البيزنطية في القرن السادس الميلادي التي كشفت عنها ووثقتها البعثات الأثرية.**

لحمايتها، فبنى عام 542.م أسوارها الضخمة بعد أن كانت محاطة بسور من الطين. كما كرم كنيسة القديس الشهير سيرجيوس، فأحاط المكان بسور منيع وبنى خزانات للمياه وشيد بيوتاً وقاعات استقبال وأبنية أخرى كما يروي بروكوبيوس مؤرخ بلاط الإمبراطور جوستنيانوس. من الأهمية بمكان تسليط الضوء على المدينة في تلك الحقبة والدور الذي لعبته في شمال سوريا بالتبشير والدعم للديانة المسيحية. عبر دراسة تاريخ المدينة ككل مع أبنيتها، خصوصاً كنيسة القديس سيرجيوس وكنيسة الصليب المقدس العائدتان للعصر الروماني المتأخر واللتان ازدهرتا على طريق الحج المسيحي في القرن الرابع والخامس الميلادي واشتهرتا في كل أرجاء الإمبراطورية البيزنطية[42].

أديرة الغساسنة في جنوب سوريا خلال العهد البيزنطي. كان جنوب سوريا مقسم إلى أربع مناطق في العصور الكلاسيكية: المنطقة الأولى هي: منطقة البثينة أو الباتانيه الرومانية اسم مشتق من الكلمة اليونانية المأخوذة عن الآرامية، المنطقة الثانية: جولاينتيد الجولانية، الثالثة: التراخونيا اللجاة والمنطقة الأخيرة أورانتيد حوران. أخذ الرومان هذا التقسيم عن التنظيم الإداري الهلنستي وتبناه العرب بعد البيزنطيين. على الرغم من ذلك لا تُعرف الحدود الدقيقة لتلك المناطق التي تغيرت بطبيعة الزمن[43].

لم تظهر الآثار المسيحية إلا مع بداية القرن الثالث الميلادي، اد دكر وجود مطران في بصرى. كان عدد المسيحيين في تلك الفترة قليل جداً في المدن أما في الريف فكان عددهم أكبر يجتمعون في بيوت خاصة. فيما بعد ظهرت السلطات الأسقفية في كل من حوران مع بداية القرن الرابع الميلادي وسرعان ما انتشرت الكنائس والأديرة في المنطقة. إن المعلومات المتوافرة عن مراكز تواجد الغساسنة وأديرتهم الدينية في جنوب سوريا تأتي إلينا من خلال الآثار المتبقية في الجنوب السوري ومن خلال الأسماء الواردة في رسالة رؤساء الأديرة العرب في القرن السادس الميلادي للأساقفة الأرثوذوكس في الكراسي الرسولية، حيث عقد الأساقفة العرب مجمعاً كنسياً لهم في داريا قرب دمشق، وأرسلوا رسالة إلى بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق وغيرها من الكراسي. تتضمن الرسالة تأكيدهم على الإيمان الأرثوذوكسي القويم مرفقة مع اسم وتوقيع الأسقف واسم أبرشيته في جنوب سوريا بين دمشق وحوران والجولان مراكز تواجد الغساسنة، ورد فيها أيضاً اسم يعقوب البرادعي أسقف الرها وورد فيها أيضاً اسم تيودور أسقف العرب في عهد المنذر بن الحارث الغساني. الرسالة تعود لعام 570 م في عهد المنذر بن الحارث، تكتسب أهمية خاصة من وجهة نظر المستشرق تيودور نولدكه، لأنها تعطي فكرة واضحة عن سيطرة مملكة الغساسنة في الشمال وأماكن توضعهم واستقرارهم في جنوب سوريا. ورد في الوثيقة أسماء أربعة مواقع أثرية مهمة في التاريخ البيزنطي في جنوب سوريا وهي: دير طور حرثا في الجنوب قرب الجولان، قرية بركيا ومبانيها الكنسية، قرية زواريا (إزرع)، قرية صرمانين ومبانيها الكنسية؛ كنيسة طفحة وكنيسة نمره[44].

---

[42] **Zanini, E., 2009, p.165.**

[43] **بالتي، كلوي باسكال و دنتزر، جان ماري: *حوران 3، المساكن في ريف منطقة جنوب سورية في الفترتين الكلاسيكية والقروسطية*، ترجمة ديما الأشقر، وزارة الثقافة، دمشق 2016، ص 89-91.**

[44] **خلف، تيسير، *كنيسة العرب المنسية، أديرة الغساسنة في دمشق والجولان وحوران ولبنان*، ص 216.**

تاسعاً: الرهبنة السورية في القرن الرابع الميلادي.

من الظواهر اللافتة في حركة التدين في العصر الروماني المتأخر، نلاحظ ظاهرة الرهبنة أو العبادة النسكية، التي أصبحت جزءً أساسياً من الحياة الدينية في ذلك الوقت، وهي نوع من حياة التقشف والزهد بالدنيا، عاشه المسيحيون الأوائل في أرجاء الإمبراطورية وخصوصاً في مصر والشرق، حيثُ ترك الرهبان المدن وسهولة العيش، واتجهوا للتقشف في الأرياف والصحاري، من مصر انتقلت الظاهرة إلى فلسطين، ومنها إلى سوريا، التي ازدهرت فيها الرهبنة في الشرق والغرب خلال العصر الروماني المتأخر[45].

تذكر المصادر التاريخية؛ أن أول من مارس طقوس الرهبنة المسيحية كان الراهب أنطونيوس الكبير الذي عاش بين القرنين الثالث و الرابع الميلاديين، فكان من أول الرهبان التاركين للمدينة والمتجهين للعيش في كهف معزول عن البشر في البرية، من بعده نقرأ في المراجع عن الراهب بوخوميوس المصري و الذي تأطرت في حياته و ممارسته للرهبنة أصول و تقاليد، ستبقى مؤثرة في الرهبنة من بعده، و خصوصاً موضوع بناء الأديرة التي يخدم فيها الرهبان والراهبات، من أمثال أخته مريم التي بنى لها ديراً عملت فيه على جمع الراهبات، لخدمة الدير و العبادة و الحياة النسكية، التي ستُصبح فيما بعد تقليداً بيزنطياً عريقاً. من مصر انتقل نظام الرهبنة و طريقة عيش الرهبان إلى سوريا، التي ظهر فيها في القرن الرابع الميلادي الراهب الشهير مار أفرام السرياني الذي مارس الرهبنة في حياته و جعلها تنتشر كنهج حياة من بعدهِ في شمال شرق سوريا، من بعده انتقلت إلى غرب سوريا و تحديداً إلى ريف حلب و إدلب، خصوصاً منطقة المدن المنسية كدير سمعان و الباره سرجيلا والقرى الرومانية الأخرى في المنطقة، حيثُ ظهر نوع جديد من الرهبنة، ألا و هو الرهبنة العمودية؛ التي يمارسها الراهب على عمود مرتفع يناجى الإله عنه، مع قلة في الأكل و المشرب تمتد لأيام، بدأت الظاهرة في القرن الرابع الميلادي، كان من أشهر روادها فيما بعد الراهب سمعان العمودي الذي عاش في شمال سوريا و الذي أسس الدير الشهير باسمه بعد وفاته و الذي يضم بقايا العمود الذي ترهب عليه لمدة أربعين عام. من بعد الراهب سمعان العمودي، ظهر في سوريا الراهب دانيال العمودي في ريف أنطاكيا والذي نال شهرة كبيرة، لتتحول الرهبنة السورية على يد الرهبان العموديين إلى حركة دينية بارزة في الإمبراطورية البيزنطية، امتدت شهرتها حتى بلغت أديرة الرهبان في الغرب. أصبحت الرهبنة مع النساك المصريين والسوريين منهج مؤثر في الحياة الروحية في الإمبراطورية وعنصراً مميزاً للحياة الدينية في العصر الروماني المتأخر، مع ذكر أو عدم إغفال أن أصول الرهبنة أقدم من ذلك بكثير وهي تعود لأصول مصرية وآرامية وهندية قديمة تسبق العصر الكلاسيكي والحضارة اليونانية والرومانية[46].

الخاتمة:

لقد أسهمت سوريا كولاية بيزنطية في الحدث التاريخي للإمبراطورية وقدمت أمثلة حضارية مادية ومعنوية لا يُمكن للدارسين لتاريخ الحضارة البيزنطية من فهم مجريات التاريخ البيزنطي من دون المرور عليها. تتركز المعطيات الحضارية السورية في العصر البيزنطي **في أربعة مجالات مؤثرة؛ أولها:** الناحية الاستراتيجية لسوريا كمنطقة مهمة تقع بين الشرق والغرب لعبت دروراً مفصلياً في الصراع البيزنطي الفارسي. **ثانيها:** الديانة المسيحية وتقاليدها الراسخة ونشرها في الإمبراطورية حيثُ طبعت سوريا المسيحية بصبغتها عبر شخصياتها المقدسة من الرسل والقديسين الذين

[45] **Pacaut, M., *Monaci e religiosi nel Medioevo*, Mulino, Paris 1989, p.15.**

[46] **أبونا، *تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية*، ص 153-155.**

خرجوا من سوريا لنشر الديانة في كل أنحاء الإمبراطورية بداية من القرن الأول الميلادي حيثُ كانوا أقلية مضطهدة وحتى القرن الرابع الميلادي عندما أصبحت المسيحية الديانة السورية ديانة الإمبراطورية والأباطرة. **ثالثها:** الاقتصاد الزراعي والنمو الاقتصادي الذي حققته مناطق سوريا الزراعية في العصر البيزنطي الذي أدى إلى ازدهار المراكز العمرانية في العصر البيزنطي بطريقة لافتة حيثُ ضمت سوريا كولاية شرقية عشرات المدن ومئات البلدات اللافتة في التاريخ البيزنطي والتي نشأت في الريف الزراعي بعيداً عن المدن الكبيرة. **رابعها:** العمارة المدنية والكنسية فقد قدمت سوريا خلال هذا العصر أمثلة معمارية فريدة اختلطت فيها العمارة المحلية مع العمارة الكلاسيكية لتقدم للعالم نماذج فريدة تُدرس حتى اليوم في جامعات العالم كدير سمعان مثلاً لا على سبيل الحصر. من هذه العناصر مجتمعة صِيغت حضارة سورية قدمت للإمبراطورية تقاليد وأدبيات راسخة في السياسة والدين والاقتصاد والعمارة.

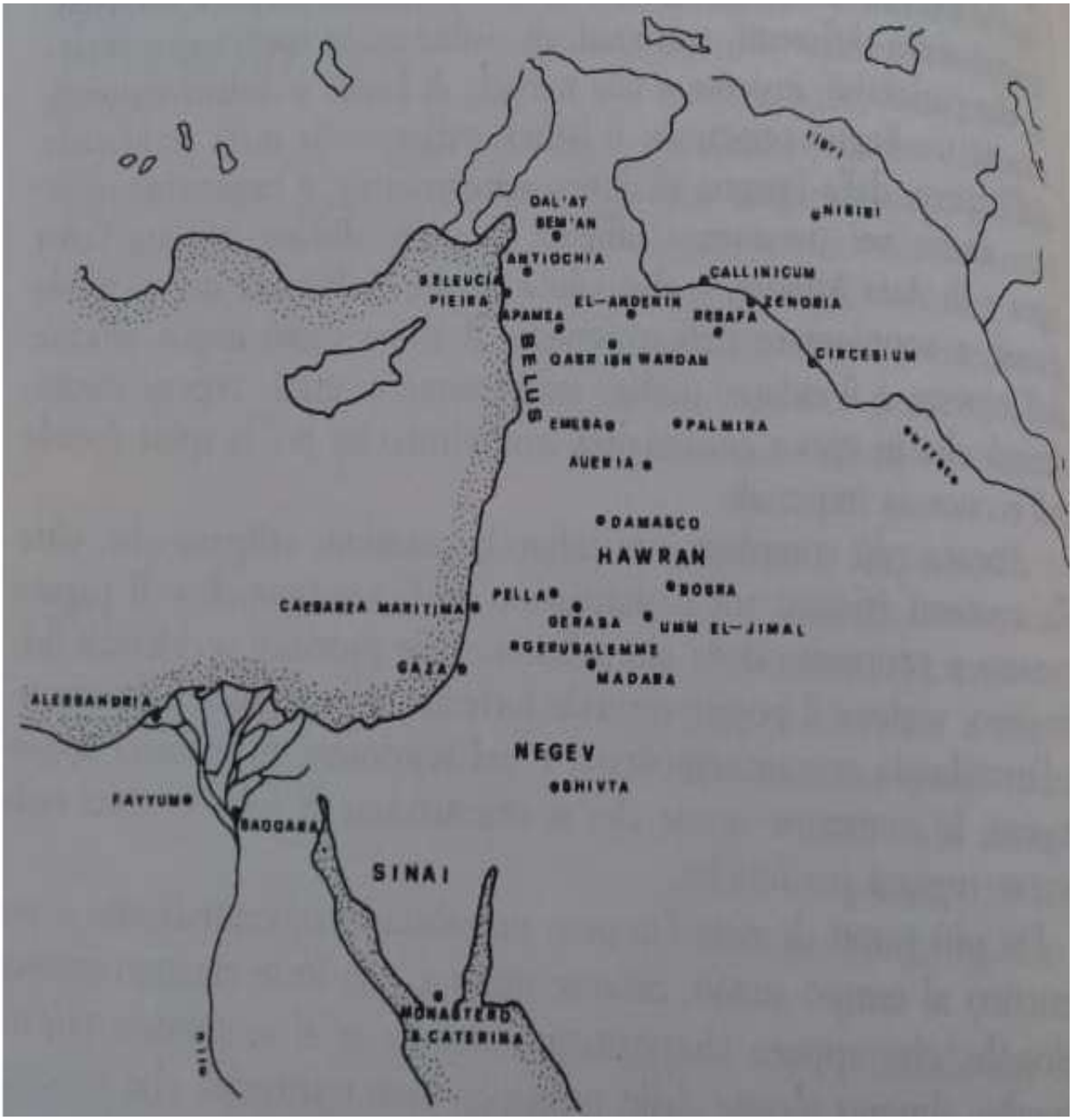

(خريطة توضح أهم مراكز الإرث الأثري البيزنطي في سوريا : E, Zanini , p.54)

Reference:

1. Abua, Albeer**, *History of the Eastern Syriac Church,*** Dar al-mashreq, Beirut 1999. (199 pages).
2. Khalaf, Tayseer, ***Forgotten Arab Church***, Dar al-Takwin, Damascus 2008. (271 pages).
3. Farah, Na'im, ***Political History of Byzantium***, Damascus University 1999. (375 pages).
1. Palti, C, Pascal et Dunzer, J., ***Horan 3, logement rural dansies campanes du sud de la Syrie à l'époque classique et médiéval***, tr: Dima Ashqar, Wezarat al-Thaqafa,Damascus 2016. (571 pages).
2. Sarter, Murice, ***La Syrie à l'époque hellénistique et romain***, Tr: Muhammad Dunia, Wazarat al- Thaqafa, Damascus 2005. (200 pages).

Bibliography:

1. Butler, H, C., *Early Churches in Syria, Fourth to Seventh Centuries*, a cura di E.B. Smith, Princeton 1929 (Amsterdam 1992). (274 pages).
2. Downey, G., *A History of Antioch in Syria: from Seleucus to the Arab Conquest*, Princeton university, 1974. (342 pages).
3. Harrak, A., *"The Ancient Name of Edessa"*, *Journal of Near Eastern Studies*, n:51, 1992. (6 pages).
4. M. de Vogüé, *Syrie centrale. Architecture civile et religieuse du I au VIIIe siècle*, 2 voll., Paris 1865-1877. (315 pages).
5. Marcone, A., *Storia Dell' Agricoltura Romana*, Carocci, Roma 2005. (237 pages).
6. Ostrogorsky, G., *Storia dell'impero bizantino*, Einaudi,Torino 1993. (527 pages).
7. Pacaut, M., *Monaci e religiosi nel Medioevo*, Mulino, Paris 1989. (338 pages).
8. Ravegnani, G., *Introduzione alla storia bizantina*, Il Mulino, Bologna 2008. (203 pages).
9. Tate, G., *Les campagnes de la Syria du Nord à l'époque protobyzantine*, in *Hommes et richesses* (1989). (15 pages).
10. Tchalenko, G., Baccache, E., *Eglises de village de la Syrie du Nord, 2 voll*., Paris 1979-1980. (361 pages).
11. Tchalenko, G., *Villages antiques de la Syrie du Nord*, Paris 1953-1958. (442 pages).
12. Zanini, E., *Introduzione All' Archeologia Bizantina*, carroci, Roma 2009. (274 pages).